

نظرية العلم في القرآن.. ومدخل جديد للتفسير



«مراجعة في كتاب (نظرية العلم في القرآن)، غالب حسن، قم، سلسلة كتاب قضايا إسلامية معاصرة، قم، 1419هـ - 1999م» جاء رجل من الأنصار إلى النبي (ص)، فقال: يا رسول الله، إذا حضرت جنازة أو حضر مجلس عالم، أيهما أحب إليك أن أشهد؟ فقال رسول الله (ص): "إذا كان للجنازة من يتبعها ويدفنها، فإن حضور مجلس العالم أفضل من حضور ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض، ومن قيام ألف ليلة، ومن صيام ألف يوم، ومن ألف درهم يتصدق بها على المساكين، ومن ألف حجة سوى الفريضة، ومن ألف غزوة سوى الواجب تغزوها في سبيل الله بمالك ونفسك. وأين تقع هذه المشاهد من مشهد عالم؟ أما علمت أن الله يطاع بالعلم، ويعبد بالعلم، وخير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل"[1]. لقد تمحور هدف النبوة الخاتمة حول تحرير العقل البشري من الخرافة والجهل والإرتقاء بوعي الإنسان وتطهيره من براثن الجاهلية، ولهذا احتل الحث على استخدام العقل، والدعوة إلى التفكير، والتدبير، والنظر مساحة واسعة من القرآن، فوردت مشتقات العقل في تسع وأربعين آية، جاءت كلها بالصيغة الفعلية، من قبيل: يعقلون، تعقلون، تعقل، يعقلها، عقلوه. بينما لم تأت كلمة العقل بالصيغة الإسمية في الكتاب الكريم، وإن وردت مرادفات ومقارباتها بهذه الصيغة، مثل: القلب، العلم، الحجى، النهى، الفؤاد، القلب، مضافاً إلى أن القرآن يشمل ما يزيد على ثلاثمئة آية تتضمن دعوة الناس إلى التفكّر والتدبير أو التعقّل أو التدليل على إثبات الحق وإبطال الباطل. ولم يأمر الله تعالى عباده في كتابه أن يؤمنوا

بشيء من دون بصيرة وتدبّر، حتى أنّه ذكر الكثير من الأحكام في سياق التعليل. ويوحى تلبّس العقل في تمام الموارد التي جاء فيها من القرآن بالصيغة الفعلية بتوجيه الإنسان نحو أعمال العقل وتوظيفه في الحقل الذي أنيط به، وهو المواظبة على التفكّر، والتدبّر، والتبصّر، والنظر، والتذكّر، والتفكّر، وهذه بمجموعها مشاغل تطلّب فعالية دؤوبة متوئبة للعقل بنحو متواصل. كذلك اهتم القرآن إهتماماً بالغاً بتأكيد النظر العقلي، وحثّ على تحصيل العلم والمعرفة، وتجلّى ذلك الإهتمام بوضوح في تكرار مادة العلم ومشتقاته في الآيات الكريمة بما يزيد على تسعمئة مرّة، إذ استهلّ الوحي خطابه للرسول (ص) بالأمر (إقرأ باسم ربك الذي خلق)، وأردف هذا الأمر بأمر آخر بالقراءة (إقرأ وربك الأكرم) (العلق/ 1). ويبدو أنّ الأمر الثاني بالقراءة ليس توكيداً محضاً للأمر الأوّل، وإنّما "طلبت من الرسول قراءتان: قراءة تأتي عبر التعلق بقدرته المطلقة في الحركة الكونية، ودون كيفية محددة، تتجلى في الإتجاه بالعلقة إلى مرحلة الإنسان، كما تتجلى في الإتجاه بالحياة إلى الموت وبالموت إلى الحياة. وهي قراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية وصفاتها وخلقها للطواهر ذات المعنى، وتحديد هدف حق للخلق. قراءة خالصة لقدرة الله في كتاب كوني مفتوح. هنا تأتي القراءة بإسمه المقدّس، أي قراءة بالله بوصفه خالقاً والخلق صفة يتفرّد بها الله. وقراءة ثانية ليست هي بإسمه ولكن (بمعنيته) لذلك لم تأت الآية في الشطر الثاني على نحو المقدمة، فلم يقل (واقراً باسم ربك الأكرم) ولكن (اقراً وربك الأكرم) فجعل العطف على الربوبية وأعطى الأمر الثاني (اقراً) إتّجاهاً مستقلاً، والأمر واضح بالنسبة إلى حركة الواو في القراءة الثانية، فدلّل المعية هنا في (وربك) ثمّ يتخذ الله في القراءة الثانية صفة دالة على نوعية القراءة المطلوبة، وهي قراءة متعلقة بصفة كون الله كريماً فيما خلق، أي أنّها قراءة في عالم الصفات التي تتجلى في الخلق، وعالم الصفات عالم موضوعي، ولذلك جاءت القراءة هنا عبر علم متعلق بالقلم، والقلم بالنسبة للإنسان وسيط خارجي لمعرفة موضوعية وليست ذاتية" [2]. من هنا تجيء ثنية الأمر بالقراءة لتؤرّخ للحظة جديدة تمثّل منعطفاً في تطور وتكامل المعرفة البشرية، وتؤذن بدخول الإنسان في عهد جديد، تندمج فيه قراءتان وتتوحّدان بإتساق، وتغدو كل واحدة منهما وجهاً للقراءة الأخرى، تدلّ عليها وتفود إليها. وبموازاة ذلك، نبّه القرآن إلى منزلقات العقل وآفاته، فشدّد على ذمّ التقليد الأعمى وإتباع الآباء، والإستسلام لميراثهم، من دون تمحيص وغريبة. وهكذا حذّر من الإعتماد على الظن، وصرّح بأنّ الظن لا يغني عن الحق شيئاً، وإنّ المعرفة الحقّة لا بدّ أن تستند إلى اليقين، واتّخذ القرآن موقفاً لا لبس فيه حيال إتباع الهوى فشدد على أنّ الهوى يقود للتيه والضلال، ويحجب الفؤاد عن معانقة الحق، ويحول بين العقل وبلوغ الحقيقة. وعمد القرآن إلى إستخدام الإستدلال على ما أورده من

عقائد وأحكام، ولم يطالب بالتصديق بلا برهان (قلها توا برهانكم) (النمل/ 64)، واستعانت أساليب الإستدلال فيه بما هو محسوس في هذا الكون والقصص، فاكستت بمشاهد واقعية، منبثقة من حياة الإنسان وما يكتنفها من تداعيات ومشاكل. فقد تحدّثت الأمثال القرآنية عن الواقع المحسوس، وحكت القصص تجارب تاريخية عاصرتها الأُمم الماضية، وأشارت آيات عديدة إلى الأرض وطواهرها المتنوعة، والكون وما يزخر به من أجرام تضبطها مجموعة قوانين صارمة لا تتخلّف ولا تختلف. - نظريّة العلم في القرآن تناول المفسّرون مسألة العلم والمعرفة في القرآن من سياق تفسيرهم للآيات التي تحدّثت عن هذه المسألة وما ينصل بها، كما عالج قضية العلم والإدراك في القرآن الحكماء والعرفاء والمتصوّفة والملتكّسون، وذهب كل منهم في بيان هذه القضية مذاهب شتى، اصطبغت بمنظوراتهم ومواقفهم القبلية، فعبرّت في الغالب عن آرائهم أكثر من تعبيرها عن رأي القرآن، وظلت قضية العلم والمعرفة والإدراك في القرآن تفتقر إلى صياغة موضوعية تستلهم الوحي وتهتدي بنور القرآن، صياغة تتحرر من إسقاطات وحمولة رؤى الفلاسفة والمفاهيم الوضعية الحديثة، ما خلا بعض الدراسات والأبحاث المعاصرة أو الإشارات المتفرقة في تراث التفسير. وتجيء محاولة الباحث الأستاذ غالب حسن في هذا الكتاب كمساهمة متميزة تعالج هذه القضية من منظور مختلف، يتخذ من آيات القرآن مرجعية وحيدة، ولا يتجاوزها إلى ما يؤدّي إلى تشوّه الرؤية من أفكار ومفاهيم بعيدة عن معين السماء. وغالب حسن باحث متمرس في الدراسات القرآنية، صدر له قبل ما يناهز ثلاثين عاماً كتاب (الوجود في القرآن) وهو محاولة مبكرة لإستخلاص تصوّر القرآني للكون والإنسان والحياة، وأردف تلك المحاولة بمجموعة دراسات تؤسّس لمداخل جديدة في التفسير. أمّا في كتابه المائل بين أيدينا، فيتناول في الفصل الأول قضية العلم والمعرفة في القرآن الكريم، ويلحقها في الفصل الثاني بمدخل جديد للتفسير اصطلاح عليه بالتفسير المعادلاتي. وبالنسبة لمسألة العلم والمعرفة، يستنطق النص القرآني ويتقصى دلالاته بشأن هذه المسألة بغية اكتشاف نظرية ترتسم فيها سائر أبعاد الموقف القرآني إزاء العلم والمعرفة. يستخلص الباحث أبرز طرق المعرفة في القرآن، ابتداءً بالسمع والبصر، ثمّ التفكّك، والرؤية، والتعقّل، والنظر، والتبصّر، مؤكداً أنّ كل طريق معرفي في تلك الطرق يفضي إلى مطابق في قوّته وشدّته، ومستواه، مع عمق الطريق، ودقته، وسعته، ومدى صلاحيته في استحصال المعرفة والعلم. ومما لاريب فيه أنّ التفكّك، والتعقّل، والتبصّر، والنظر، والرؤية، تعني أنّ الإنسان مزوّد بجهاز مفكّك، وهذا الجهاز هو العقل. والعقل في القرآن قوّة درّاسة يمكنها أن تجول في طواهر الحياة، والتاريخ، والمجتمع، والكون. إنّ العقل في القرآن يتجاوز الطواهر الجاهزة من المعرفة، من أجل معرفة السبب والغاية. ومما ينبغي الإشارة إليه أنّ الآيات التي تنتهي بـ(يعقلون، يتفكّرون، يبصرون، يتذكّرون...) أو التي

تستهل بالنظر والرؤية، إنَّما تدعو إلى إستعمال العقل في وعي أسرار الظواهر، وليست المسألة هي مجرد تأمُّل وصفي ساذج، بل هي غور في عمق الأشياء، واستكناه البنية الأساسية للحقائق. وفي السياق ذاته، يستقرئ المؤلف مستويات المعرفة في القرآن، فيستهلها بالدراية - الإدراك والفهم - الفقه، والحس - الشعور والبصيرة - الرؤية، واليقين، وأخيراً الظن. ويحدد العلاقة التفاعلية العضوية بين هذه المستويات، وأنحاء الإرتباط بين كل واحد منها والآخر، وكيف يرتقي وصف القرآن لجماعة من الناس، فيُسمِّيهم: (أولوا الأبواب، وأولوا الأبصار)، ممَّن يتميَّزون بمستوى رفيع من الوعي والبصيرة. بعد ذلك، يتابع المؤلف بالدراسة والتحليل ما يرتبط بالعلم، والبرهان، والبيان في القرآن، ويستخلص النسيج الموحد الذي تشير إليه الآيات، وما يرقد وراء مداليلها التفصيلية من مداليل مشتركة تشي ببناء منظم منبث في الآيات كلها. ثمَّ ينتقل الكاتب إلى الفصل الثاني، فيرسم لنا ركائز منهج (التفسير المعادلاتي)، وهو منهج في التفسير يهتم بإستكشاف ما يسود القرآن من معادلات كونية، واقتصادية، وأخلاقية، وسياسية. فكثيراً ما يربط القرآن بين عنصرين على نحو معادلة، لها جذورها، وشروطها، ونتائجها، فضلاً عن طرفيها. ويلخص الكاتب خمسة معالم لمنهج التفسير المعادلاتي، تبدأ بتشخيص الآية ذات البنية المعادلاتية، تليها عملية اكتشاف ما يعزز ويدعم هذه المعادلة، ويتمثل هذا المعزز بالترابط العضوي بين ضدي طرفي المعادلة. فمثل هناك ترابط بين طرفيها، كالترباط والإطراد الإيجابي بين الشكر وزيادة النعم مثلاً، فإنَّ هناك ترابطاً بين ضدَّيهم الكفران بالنعمة والقحط. بعد ذلك، يُجرى تعريفاً قرآنياً دقيقاً لكل موضوع من موضوعي المعادلة، لا مكان التسلسل المنطقي الصحيح لفهم المعادلة، كفضاء وبناء ونتائج. ولا يقف التفسير المعادلاتي عند هذه الخطوة، وإنَّما يرتقي إلى مجال أوسع، فيسعى للتعرُّف على المعادلة الأُم، وهي المعادلة التي تندرج تحتها معادلات متعددة، ولا تكون هذه المعادلة سوى أحد أفرادها. وفي خطوة أخيرة، يثبت جذر المعادلة بإعتباره وعاء إنبعائها وتأسيسها وصوريتها. ولا يقتصر البحث على تحديد معالم هذا المنهج التفسيري وإنَّما يتخطاه للتطبيق على ثلاثة نماذج منتقاة. ففي النموذج الأوَّل، يُطبَّق المؤلف التفسير المعادلاتي على معادلة أخلاقية، لها طرفان مشخصان بصراحة هما على الترتيب: الشكر وزيادة النعم (لئن شكرتم لأزيدنَّكم) (إبراهيم/7). وفي النموذج الثاني، يُطبَّق معادلة إجتماعية، لها طرفان، هما: مصير النعمة من جهة والمحتوى الداخلي للإنسان من جهة أخرى (ذلك بأنَّ الإنسان ليطغى) لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم) (الإنفال/53). أمَّا النموذج الثالث، فهو تطبيق لمعادلة حضارية، تعتبر من المعادلات الماضية الراسخة في ذاتية الفكر الإسلامي المستوحى من كتاب الله، تلك العلاقة الضرورية بين نوع الكلمة والوجود، لأنَّ الكلمة في لغة القرآن وبالتحليل

تعني الفعل. فالكلمة الطيبة كفؤ الفعل الخير (كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعه في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها) (إبراهيم/ 24). والكلمة الخبيثة كفؤ فعل الشر (كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) (إبراهيم/ 26). ثمّ يمضي الباحث إلى ما هو أبعد من ذلك ليكتشف الإطار الأوسع أو المعادلة الأُم التي تنضوي تحتها هذه المعادلة، وهي ما يعبرُ عنها قوله تعالى: (فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) (الرّعد/ 17). فهذه الآية تتحدّث عن معادلة كبرى تجد فيها المعادلة السابقة مكمّنها المناسب، وحاضنها الحقيقي، وراعيه الصادق. فالكلمة الطيبة بإعتبارها فعلاً خيراً، إنّما هو من مصاديق ما ينفع الناس. وأمّا الكلمة الخبيثة، فهي ليست إلا زبداً يذهب جفاء ويضمحل ويتلاشى. - معادلات ذكرها في القرآن يمضي الكتاب أخيراً لبيان موضوع (ذكرها في القرآن)، ويبلور مدياته وآفاقه ومصاديقه، وما يتصل به من مفاهيم، وهنا يستأنف تطبيق التفسير المعادلاتي، مكتشفاً مرّة أخرى ثلاث معادلات قرآنية في موضوع الذّكر، كيما يغدو هذا البحث متمماً لسابقه، وإن تبدى لنا عنوانه بصورة أخرى. إنّ هذه النظرة الخاطفة لا تغنيّا عن مطالعة هذا الكتاب الهام، بالرغم من ضآلة عدد صفحاته، نظراً لما تجلّت في ثناياه من إجتهدات مبدعة في استنطاق الآيات الكريمة، واستكناه مداليلها المشتركة التي قد تغيب عن أثر الإستغراق في المداليل التفصيلية الخاصة بكل آية. نتمنّى على المؤلّف أن يعالج مسألة العلماء ومقامهم ووظيفتهم ومسؤوليتهم في القرآن الكريم أيضاً، في سياق معالجته لقضية العلم في القرآن، خاصة وأنّ هناك فهماً خاطئاً يسود بين الناس، بل لدى بعض العلماء، يرى أنّ مهمة العالم لا تكفّ تعدّي إمامة الصلاة، وتدبير بعض الطقوس، وتعليم شيء من الأحكام. بخلاف ما يحدّده القرآن من هذه المهمة، كما ورد عن الإمام محمد الجواد (ع): "العلماء في أنفسهم خاتمة إن كنتموا النصيحة، إن رأوا تائهاً ضالاً لا يهدونه، أو ميتاً لا يحيونه، فبئس ما يصنعون، لأنّ الله تبارك وتعالى أخذ عليهم الميثاق في الكتاب، أن يأمرُوا بالمعروف وبما أمروا به، وأنّ ينهوا عمّا نهوا عنه، وأن يتعاونوا على البرّ والتقوى، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان" (الكليني، الكافي، ج8، ص54) [3]. الهوامش:

[1] النيسابوري، روضة الواعظين، ص12. [2] حاج محمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، الطبعة الثانية، ج1، ص 456-457.

[3] الكليني، الكافي، ج8، ص54.

